مدرسة الإسكندرية

خلق الإنسان علي صورة الله في التقليد الآبائي

عند القديس ايريناؤس أسقف ليون (٢)

مركز الأبحاث بالمجلة

إن لم تؤمنوا فلن تفهموا

العدد الرابع - ٢٠١٠

مجلة مدرسة الإسكندرية

عدد ٤

خلق الإنسان على صورة الله في التقليد الآبائي عند القديس إيرناؤس أسقف ليون (٢)

ترجمة مركز أبحاث المجلة

مدرسة الإسكندرية

خلق الإنسان على صورة الله في التقليد الآبائي*

عند القديس ايريناؤس أسقف ليون (٢)

ترجمة مركز الأبحاث بالمجلة

عودة الفردوس

لقد استخدم القديس ايريناؤس كلمة *anakephalaiosis* (*recapitulation*) للتعبير عن دور المسيح لكي يعيد للإنسان الشبه الإلهي، [والتي تعني إعادة جمع الأشياء معًا، تحت رأسٍ واحد، مرة أخرى(١)] وهي الكلمة التي استعارها القديس ايريناؤس من القديس بولس ويوستين الشهيد، كما يلي:

"يقول يوستين حسنًا في كتابه ضدّ ماركيون: لم أكن لأصدِّق الرب لو كان قد أعلن عن شخصٍ آخر غيره هو؛ جابلنا وصانعنا ومحيينا. ولكن لأنّ الابن الوحيد أتى إلينا من اللّه الواحد الذي صنع هذا العالم، وشكّلنا نحن، وهو يحتوي، ويُدبِّر كلّ الأشياء، جامعًا إليه، في نفسه، كل عمل يديه، فإنّ إيماني به راسخ، ومحبتي للآب لا تتزعزع، واللّه هو المانح لنا، كليهما" (٢)

فهذا التعبير «جامعًا إليه، في نفسه، كل عمل يديه» هو توضيح يوستين الشهيد لقول القديس بولس إلى أهل أفسس، كما ورد في (أف ١ : ١٠، ٩):

---

*هذا المقال مترجم عن كتاب

G. A. Maloney, *Man, The Divine Icon ; the patristic Doctrine of Man Made according to the Image of God,* Dove publications 1973 , Ch 3 , pp. 42 – 51

[في بعض الأجزاء من المقال يسترسل الكاتب في شرح مفهومٍ ما، لذا قمنا بحذف تلك الفقرات ووضعنا مكانها [. . .].

[1] Wesley J.Perschbacher, The New ANALYTICAL, GREEK LEXICON Hendrickson Publishers, 1994 , p.22

[2] Ibid., IV, Ch. 6,2, p. 468

«حسب المسرة التي قصدها في نفسه، لتدبير ملء الأزمنة ليجمع كل الخليقة، ما في السموات وما على الأرض، تحت رأسٍ واحد؛ [أي] المسيح *anakephalaiosasthai*»(٣).

ويقدِّم القديس ايريناؤس في كتابه الأول، ذو الطابع اللاهوتي، المُسمَّى «ضد الهرطقات» تفسيره لعبارة القديس بولس، إذ يقول:

"... المحبوب يسوع المسيح ربنا ... (سوف) 'يجمع كلَّ الأشياء في واحدٍ' (أف ١: ١٠)، و(سوف) يقيم جسدًا جديدًا، ليدين الجميع بالعدل؛ لكيما يُرسِل إلى النار الأبديّة؛ 'أجناد الشر الروحيّة' (أف ٦ : ١٢)، والملائكة الذين تعدّوا وأصبحوا مُرتدين، فضلاً عن عديمي التقوى والأثمة والأشرار والدنيويين من الناس. ولكن بمقتضى عمل نعمته يمنح عدم الموت للأبرار والقديسين والذين حفظوا وصاياه ... ويحيطهم بمجدٍ أبديّ" (٤)

وفي نصٍّ أكثر وضوحًا، أظهر القديس ايريناؤس أن الانجماع الكلّي في المسيح، يعني أنّ المسيح يستعيد شركتنا مع الله، في كل مرحلة من مراحل الحياة:

"ولذلك، بأي وسيلة نكون مشاركين في تبنّي الابناء، إن لم نكن قد نلنا منه [الآب] بواسطة الابن، تلك العلاقة التي تشير إليه، إن لم يكن كلمته قد صار جسدًا، ليدخل في شركة معنا؟ لهذا قد اجتاز هو [المسيح] كل مرحلة من مراحل الحياة، مُستعيدًا للكلِّ، الشركة مع الله ... ولكن ما أظهره أيضًا هو أنّه قد أعاد في نفسه جمع الخليقة القديمة، للإنسان، حتى يبيد الخطية، ويحرم الموت من قدرته، ويُحيي الإنسان، لذا فإنّ أعماله هي حقيقية"(٥)

[3] See: *Eph*. 1:10. C.f.: Schlier, H., "Anakephaloiomai" in Theologisches Worterbuch, III, p. 681
[4] Adv. Haer. I, Ch. 10,1, p. 330
[5] Adv. Haer. III, Ch. 18,7, p. 448

وهنا نرى القديس ايريناؤس في استخدامه للألفاظ التي استعملها بولس الرسول مثل: الانجماع الكلي، والصورة والمثال، هي أمثلة للغة آبائية ذات دلالات، وغنيّة بالبصيرة العميقة، لنا، نحن الذين فقدنا عمومًا هذه الطريقة بسبب تفكيرنا المعتاد. إنّ مفهوم الانجماع الكلّي يُمثّل مركز فكر القديس ايريناؤس اللاهوتي ويُقدِّم أفضل وصف لدور يسوع المسيح في تجسده. فهو يتضمّن بداية جديدة للجنس البشري، الآن، وبالرغم من أنّ آدم، في المقابل، كان أعلى من كلّ الخليقة.

فالمسيح يُبدِّل الوضع مرة أخرى، هذا الوضع الذي دفع الإنسان المُصاب بالخطيئة - والعالم بأسره والذي كان تحت سلطانه - بعيدًا عن النور الحقيقي والحياة وعدم الفساد، تجاه الخطيئة والفوضى والموت. فالله قد أعاد جمع - في كلمته - كل عمله، بإتمامه إياه حسب خطته الأصليّة من خلال الاتحاد الوثيق بين كلمة الله الحي، والإنسان الذي خُلق على صورة الله ومثاله، في شخص المسيح.

إنّ مصطلح «إعادة جمع» بحسب العالِم *Emile Mersch* [٦] يشير إلى؛ الاستكمال، الارتقاء بالجميع، العودة بالإنسان إلى حالة البدء، العودة إلى الأصل، الاستعادة، إعادة التنظيم، إعادة الاندماج تحت رأس واحد.

وغالبًا ما علَّم القديس ايريناؤس أنّ المسيح في استعادته للخليقة تحت رأسٍ واحد، قد اجتاز كلّ خبرات آدم ولكن بنجاحٍ تام. فلم يقتصر عمل المسيح فقط على إبطال كل ما عمله آدم، تفصيلاً، ذاك الذي آل بالبشريّة إلى حالة الفوضى. إنّ استعادة المسيح للإنسان (ومعه كل العالم المادي الكوني المخلوق الذي يدور في فَلَك الإنسان) هي عملية ديناميكية [مستمرّة] من النمو والصراع معًا. فالمسيح هو المدافع عن الجنس البشري، والمنتصر الذي دخل المعركة ليغلب الشيطان [٧].

6 Mersch, Emil, The Whole Christ, Milwaukee, 1938, p. 230
7 Cf: Aulen, Gustav, Christus Victor, London, 1931

إنّ عمل المسيح لم يكن فقط مجرّد عودة بالخليقة إلى حالتها الأصليّة قبل السقوط. ولفهم معنى الاستعادة، أضاف القديس ايريناؤس مفهوم الاكتمال، من خلال عملية نمو مستمرة، كما كان ظاهرًا في خطة الله الأصليّة قبل السقوط، بدءًا بمرحلة الجنين ومن بعدها الطفولة انتهاءً بالنضج الكامل من خلال شركتنا مع الله. ولتوضيح كيف أتمَّ المسيح استعادة الإنسان، استخدم القديس ايريناؤس تناظرًا دقيقًا بين أعمال المسيح وأعمال آدم [٨] وهنا نرصد الرؤية الوجودية التي يطرحها القديس ايريناؤس فيما يتعلق بعمل المسيح الخلاصي الذي لم يظهر فقط في الميلاد والصلب، بل امتدَّ ليشمل كل حياة المسيح وما تحمله من دلالات خلاصيّة. ولكن أعمال المسيح ليست مجرد نسخ ميكانيكية من أعمال آدم، فمن خلال طاعته الكاملة لأبيه السماوي قد أبطل عصيان آدم. فالشيطان تمّ قهره، والعالم قد تحرَّر من سلطان الموت. إلاّ أن كلّ هذا لم يُحقِّق عمل المسيح في الانجماع الكلي [في حياة المؤمنين]، إذ أنّ هذه الأعمال لم تُكمِّل خطة الله في الخليقة. إنّ أعمال المسيح التي تظهر من خلال كنيستة، والتي بمسؤوليتها التي اضطلعت بها، تُعلِّم كلمته الحية، وتخدم أسراره المقدسّة، وهي لاتزال ممتدة في الكون. والمسيح القائم، لايزال متجذرًا في عالمنا، بحياته المجيدة. فالكنيسة تُقدِّم المجال الذي فيه يتلاقى الإنسان مع المسيح؛ معطي الكمال [٩]. فمن خلال الكنيسة، يستعيد المسيح، للإنسان، عطيّة الحياة الإلهية التي فُقدت بالخطية. فالشبه للمسيح، في آدم، قد فُقِدَ بسبب الخطيئة، ولكن تمّ استعادته لكل شخصٍ على حدى، من خلال أعمال المسيح الخلاصيّة، داخل كنيسته.

نجد تأثيرًا كبيرًا في أحد نصوص القديس ايريناؤس على كتابات الآباء من بعده، أكثر من أي نصّ قد أورده أي من الآباء الأوائل، إذ يشرح بطريقة موجزة، غاية تجسد الكلمة. [ومن هؤلاء الآباء الذين تأثروا بكتابات القديس

[8] Cf: Adv. Haer. V, Ch. 21,1 pg. 549; V, Ch. 16,3 p.544

[٩] هكذا عبر كثير من آباء الكنيسة مثل القديس يوحنا ذهبي الفم ، القديس اغناطيوس الانطاكي ، على أنه لا خلاص للإنسان خارج الكنيسة. (المترجم)

ايريناؤس] العلامة أوريجانوس، القديس اثناسيوس، وكثير من الآباء الشرقيين الذين بعده ، ممّن كرروا هذا النص:

"لأجل ذلك، صار كلمة اللّه إنسانًا، وصار ابن اللّه ابنًا للإنسان حتى يستطيع الإنسان أن يتقبَّل الكلمة (اللوغوس) وينال التبني ويصير ابنًا للّه. وليست هناك طريقة أخرى ننال بها عدم الفساد وعدم الموت إلاّ من خلال اتحادنا بعدم الفساد، وعدم الموت. ولكن كيف يمكن أن نتحد بعدم الفساد وعدم الموت، ما لم يكن عدم الفساد وعدم الموت قد سبق فصار على ما نحن عليه؛ «الكلمة صار جسدًا» (يو ١ : ١٤) حتى يُبتلع الفاسد من عدم الفساد والمائت من عدم الموت وبهذا يُمكننا نوال تبني البنين"[١٠].

فكلمة اللّه صار إنسانًا مُحضرًا للجنس البشري إمكانية الخليقة الجديدة، لحياةٍ جديدةٍ. وهذه الخليقة الجديدة لا تمحو الأخرى [الإنسان الطبيعي] ولا تدمرها بل تبني على ما هو طبيعي ومادي، محولة إياه إلى حياة جديدة، حيث تجعل الإنسان حقًا على شبه اللّه.

"وماذا أيضًا قد أحضر الرب بمجيئه؟ اعلم أنه قد أحضر الكل للتجديد، وذلك بأنه قد جاء بنفسه، وهو الذي تكلَّمت عنه النبوءات، ولهذا قد أعلن أنّ التجديد سوف يأتي ليُجدِّد ويُعطي الحياة للإنسان" [١١].

فيسوع المسيح أحضر لنا تلك الحياة الجديدة، والقديس ايريناؤس غالبًا ما يتكلم عن روح المسيح أي الروح القدس كأساس ومصدر لتلك الحياة الإلهية فينا. هذا هو الروح القدس الذي أحضره المسيح إلينا؛ "هو الذي يُنقي الإنسان ويُقيمه إلى حياة اللّه"[١٢]. وعطية الحياة الإلهية هي عطية مجانيّة تمامًا من اللّه وتختلف عن حياة الإنسان الطبيعية، وهنا [في النص التالي] نرى تمايزًا واضحًا

[10] Adv. Haer. III, Ch. 33,4 pp. 448-449; also: III, Ch. 10,2, p. 424; IV , Ch. 33,4, p. 507
[11] Adv. Haer. IV, Ch, 34, p. 511
[12] Ibid. V, Ch. 9,2 p. 535; also, 3-4 p. 535

في فكر القديس ايريناؤس بالرغم من أنه لا يريد الفصل بين الحياة الطبيعيّة للإنسان والنعمة.

"الروح يتكلّم [في المزمور] مشيرًا إلى خلاص الإنسان؛ «حياة سألك فأعطيته طول الأيام وإلى دهر الدهور» (مز ٢١ : ٤) موضحًا أن أبا الكل هو الذي يهب تلك الاستمراريّة، إلى أبد الآباد، للذين يخلصون. وهذه الحياة لا تنبع منا نحن ولا من طبيعتنا الخاصة لكنها منُحت لنا كنعمة من اللّه. ولذلك فالذي يحفظ الحياة الممنوحة له ويُقدِّم الشكر للّه؛ معُطي الحياة، سوف ينال أيضًا طول أيام إلى أبد الآباد"[١٣]

ويشير كونجر *Congar* بحذقٍ إلى أنه في فكر القديس ايريناؤس نجد تمايز بين عطية الحياة الإلهية وحياة الإنسان الطبيعية، ورغم هذا التمايز إلاّ أنهما مرتبطتين الواحدة بالأخرى.

"فالطبيعة تبدو وكأنها غير كاملة الشركة مع اللّه، ولكن بالنعمة تتحقَّق تلك الشركة بالتمام، أي يتحقّق الشبه للّه في نفس الإطار".

ويسعى القديس ايريناؤس باحثًا عن تناظرات متعددة لتوضيح الترابط بين الطبيعة والنعمة، أو بين الحياة الطبيعية والحياة الروحية، أو بين الصورة والشبه. والمَثـَل المُفضَّل للقديس ايريناؤس هو ما جاء بخصوص الزيتونة البرية المُطعَّمة [انظر رو ١١ : ١٧]. فنحن في حياتنا الطبيعية التي صنعها اللّه، نوجد على صورة المسيح، لنثمر ثمارًا من خلال غرسنا في اللّه، لكننا لا نفقد طبيعتنا بالرغم من انسكاب النعمة الإلهية فينا، بل إنّ طبيعتنا تكتسب قوة جديدة وإمكانيّة جديدة تُمكِّنها من أن تأتي بثمار لها طبيعة مختلفة تمامًا عن طبيعتنا، إذ يقول القديس ايريناؤس:

"وأيضًا مَثـَل شجرة الزيتون المُطَّعمة، التي لا تفقد مادتها الخشبيّة، لكن تتغيّر جودة ثمرها، وتنال اسمًا جديدًا (زيتونة مُثمرة). فهي لم تصبح الآن زيتونة بريّة، لكنها صارت شجرة زيتون مُثمرة ودُعيت بهذا، كذلك الإنسان عندما

[13] Ibid, II, Ch. 34,3, p. 411

يُطعَّم في جسد المسيح بالإيمان [والمعمودية] - وينال روح الله، فبكل تأكيد لا يفقد طبيعة الجسد، لكن تتغير جودة ثمار عمله وينال اسمًا جديدًا ويظهر أنه قد تغيَّر للأفضل صائرًا، ليس فقط مجرَّد جسد ودم، ولكن إنسانًا روحيًّا"[14].

مرة أخرى يميِّز القديس ايريناؤس بين «نسمة الحياة التي جعلت من الإنسان كائنًا حيًّا» وبين الروح المحيي الذي يجعله ويُصيِّره إنسانًا روحيًّا [15]. ويستخدم القديس ايريناؤس أمثلة مختلفة من أعمال المسيح بدءًا بالأشفية المعجزية، وإنتهاءًا بقيامة لعازر من الموت، ليُظهِر هذه الحياة الجديدة المعُطاه بالروح القدس[16].

[. . .]

لذا فإنه من خلال الابن، انسكب الروح القدس؛ "في الأيام الأخيرة قد انسكب بطريقة جديدة على جنس البشر، مُجدِّدًا الإنسان لله" [انظر يوئيل ٢ : ٢٩، أع ٢ : ١٨] [17]. فالروح القدس هو الذي يجعل الإنسان غير مائت - على خلاف ما تشير إليه النظريات الفلسفيَّة عن عدم موت النفس - [. . .] فالروح القدس يسكن داخل الإنسان، وله عمل فعّال، حيث يجعل الإنسان أكثر فأكثر شبهًا لله، وبهذه النعمة يتغير ويتجلّى الإنسان أكثر فأكثر، كابن لله بالتبني[18].

إلاّ أنّ هناك إمكانية لفقد النعمة، إن أغلق الإنسان أذنيه عن الشركة مع الله صائرًا كآدم الأوَّل، مائتًا بالنسبة للحياة الحقيقية؛

[14] Adv. Haer. V, Ch, 10,1-2 p 536
[15] Ibid., V, Ch. 12,2, p. 537
[16] Ibid., V, Ch. 13, pg. 539; V, Ch. 10 Ch. 17, pp. 536-546
[17] Ibid.
[18] Adv. Haer. V, Ch. 6,1, pgs. 521-532; V Ch. 12,2 pp. 537-538

"من الجيد أن تطيع الله وتؤمن به وتحفظ وصاياه، تلك هي الحياة [الحقيقية] للإنسان، إلاّ إنّ عدم طاعة الله هي شرٌ، وهذا هو موت الإنسان"[١٩]

[. . .]

يرى القديس ايريناؤس أن النعمة، التي هي الشبه الإلهي في الإنسان، مع عطية استنارة الذهن، بالإضافة للقوة المُعطاه للإرادة، ليحيا الإنسان حسب المثال الجديد، كابن لله، هي عطايا ليست استاتيكيّة، ولكنها عطايا فعَّالة تسكن في الإنسان.

وبالرجوع للتعبير الذي استعمله القديس ايريناؤس عن الزيتونة البريّة المُطعَّمة في شجرة مثمرة نستطيع أن نرى، مُجدَّدًا، أنه كان يقصد أن العلاقة بين الحياة الجديدة (الشبه الإلهي في الإنسان) كعطية من الروح القدس، وطبيعة الإنسان البشريّة (الجسد والنفس التي خُلقت على صورة المسيح) هي علاقة في وضع ديناميكي نامي.

من هنا ندرك أنَّ حضور الله وتقديسنا ونمونا إلى الشبه الإلهي يحتاج إلى العمل، وهو ما يعتمد أولاً - وقبل كلّ شيء - على عمل الثالوث داخلنا من خلال جهاد مستمر في كلّ لحظة، ومن ثمّ يظهر عمل مشيئة الله المقدَّسة. وثانيًا، يعتمد على عملنا نحن لنصير أبناءً حقيقيين لله من خلال الشركة. إنّ أعمالنا يجب أن تكون استجابة للإيمان المتنامي، والرجاء، وأعمال المحبة من نحو الله، المتأصِّل في داخلنا. وأيضًا فيما يسمَّى بالعمل المشترك *synergism* [بين النعمة والإرادة الإنسانية] يجب أن يصير للإنسان دورٌ بجانب أعمال الله ليضيف هذا النمو إلى الفضائل الثلاث [الإيمان والرجاء والمحبة] والتي تشكِّل بنية واحدة مع سكنى الثالوث الإلهي [فينا]. كما أنّ الأسرار الكنسيّة، إلى جانب الأعمال اليوميّة، هي وسائط هامة لتقبُّل العطايا الإلهية، لتثمر فينا تلك الحياة الإلهيّة.

---

[19] Ibid. IV, Ch. 39, 1 p. 522.

ويُخبرنا القديس ايريناؤس أنه أثناء الصراع والمعاناة، يرسل الله لنا الوسائل لتتنقّى نفوسنا من الإثم الذي هو بمثابة معوِّق للنمو في البر، وهذا هو التعبير الذي يستخدمه القديس ايريناؤس ليشير إلى [عطية] الحياة الإلهية داخل الإنسان. ويظهر في نصٍ آخر للقديس ايريناؤس كيف أن يدي الآب ـ الكلمة والروح القدس ـ يعملان في داخل الإنسان، لتستحضر الصورة والشبه بصورة أكثر فعالية في داخله، كما يُظهر أيضًا عمل الإنسان نفسه، في نفس السياق.

"ولهذا فإنه عبر الأزمنة، نجد أنّ الإنسان قد تشكّل بيدي الله اللتين هما الكلمة والروح القدس، لذا خُلِقَ الإنسان على صورة الله ومثاله. إنّ القش الذي هو حقًّا المرتدين سوف يُطرح خارجًا، أما القمح الذي [يشير] للذين أثمروا لله بالإيمان، سوف يُجمع إلى المخزن. ولهذا فإنّ حدوث المحن ضروري للذين يخلصون، إذ بعد ذلك يتعرضون للمطحنة ليصيروا دقيقًا ناعمًا، ويُذرَّون، بصبر كلمة الله، ويُمحَّصون في النار (للتنقية) حتى يصلحوا لمأدبةٍ فخمة. لهذا قال شخص منّا [يقصد القديس اغناطيوس الأنطاكي] عندما حُكم عليه بإلقائه للحيوانات المفترسة بسبب شهادته لله: 'أنا حنطة للمسيح وعندما أطحن بأنياب الحيوانات المتفرسة حينئذ أصير خبزًا نقيًا لله'."[٢٠]

ولكن في مسيرة الحياة، الإنسان دائمًا في حالة نمو للبلوغ إلى النضج الروحي حيث يأتي الإنسان للبلوغ إلى هدفه من خلال جهاده بواسطة النعمة الإلهيّة الساكنة في الإنسان. إنّ الخليقة التي خلقها الله منذ البدء لا يُمكن إبادتها، ولكن ستتغيّر فقط هيئتها المادية؛ "فمادة وجوهر الخليقة لا يُمكن إبادتها، لكن هيئة هذا العالم، تزول"[٢١] (انظر ١ كو ٧: ٣١)، والإنسان سوف يحيا مُجددًا في حالة عدم فساد.

[20] Ibid. V, Ch. 28,4 pg. 557 the letter quote is from the Epistle of St. Ignatius of Antioch to the Romans, Ch. 4.
[21] Ibid . V, 36, 1, p. 566

"... ولكي يتجنَّب اللّه عودة الطبيعة الجديدة للإنسان [حالة عدم الفساد] إلى طبيعة عتيقة مرةً أخرى، سوف يكون هناك سماء جديدة وأرض جديدة، سوف يبقى فيها الإنسان باستمرار، محافظًا على حوارٍ دائمٍ ومستمرٍّ مع اللّه"(٢٢)

لقد أنهى القديس ايريناؤس عمله الضخم «ضد الهرطقات» بمقولة، تُجْمِل رؤيته الأساسية. وفي تلك الرؤية المُبهجة، سوف يتأمَّل المفديون في اللّه بل وسيتأملون كل الخليقة، في اللّه؛ إذ إنّ أسرار حبه لجنس البشر لن يستطيع الإنسان إدراك كل أبعادها.

"لأنه يوجد ابن واحد الذي أتمّ مشيئة أبيه، وجنس بشري واحد فيه أسرار اللّه مكتوبة «التي تشتهي الملائكة أن تطلع عليها» (ابط ١ : ١٢) إلاّ أنهم لم يستطيعوا أن يكتشفوا حكمة اللّه التي عملها بيديه، المؤكَّدة والمزخرة في ابنه. لذا كان يجب على ابنه الوحيد، الكلمة، أن ينزل للخليقة التي تشكَّلت، والتي كان يجب أن تُحتوى بواسطته [أي بواسطة الابن]. ومن ناحيةٍ أخرى فإنّ الخليقة يجب أن يسكن فيها الكلمة، وتصعد هي إليه، متخطيةً ملائكة، صائرةً على صورة اللّه ومثاله"(٢٣).

[22] Ibid ., pp. 566-567
[23] Ibid., Ch. 36,3 p.567